مقـــدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

أما بعد ..

فإن الأمير «شكيب أرسلان» (١٨٦٩-١٩٤٦م) ، اسم أضاء في أفق الشرق فملأ الأبصار والأسماع لمدة نصف قرن ، فهو مفكر إسلامي مستنير ، وباحث فذ البصيرة ، وسياسي محنك ، وخطيب مقنع ، وشاعر مجاهد كرس ستين عاما من حياتهالتي قاربت الثمانين في خدمة قضايا أمته الإسلامية والعربية ، لم يضع دقيقة من وقته إلا وكان فيها كاتباً أو قارئاً أو خطيباً ، تعلقت به أفئدة المسلمين فأصبح رجل الساعة في العالم الإسلامي ، فكان يتلقى سنوياً أكثر من ألفي رسالة ويرد عليها جميعاً ، ويكتب زيادة عليها مئات المقالات وينشر من المؤلفات بضعة آلاف من الصفحات ، عرف له قدره رجالات عصره ، ونشرت له كبريات صحف الشرق والغرب .

ويعتبر العصر الذي شب فيه الأمير شكيب أرسلان - وهي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الأولى من القرن العشرين - أشد فترة تمر على الأمة الإسلامية قسوة على النفس والمصير ، فقد شهد الأمير شكيب أرسلان السنوات الأخيرة في عمر الدولة العثمانية ، وحمل راية الدفاع عن دولة الخلافة ، ثم حمل هموم المسلمين والعرب جميعاً بعد ضياع الخلافة الإسلامية وإعلان تركيا دولة علمانية سنة ١٩٢٩م ، وتقاسم الإستعمار للأرض العربية وعمل على تأييد سلطانه بهدم كل ما يميز الأمة من دين ، ولسان ، وتراث ، وفكر ، وحضارة ، وقومية .

واستطاع الأمير شكيب أن يحمل رسالته في تلك الأيام في قوة وإيمان لأنه درس في روية وإمعان مشاكل الأمة الإسلامية ، والعالم العربي ، فضلا عن أنه تربى في مهاد تلك المشاكل والأحداث ، وتابع تياراتها وتدفقها ، وكان في صولاته الفكرية وجولاته السياسية من الأوائل الذين حركوا فترة الجمود الفكري والسياسي في الأمة الإسلامية ،

وأثار لذلك حوله طائفة من أصحاب الأقلام والحكام ، فكان منهم المشيد الحامد ، وكان منهم الناصح الناقد ، وكان منهم المتجني الحاسد ، غير أن ذلك لم يفت في عضده ولم يحل بينه وبين المضي في السبيل التي ارتضاها وأخذ نفسه على احتمال مشاقها ، فقد كان - رحمه الله - صاحب رسالة قبل أن يك حامل قلم ، وجندي عقيدة قبل أن يكون «محترف أدب» .

وشكيب في نتاجه معطاء حتى الإرهاق ، والباحث في شكيب أرسلان يعجب من كثرة ما طالع شكيب وكتب ، فمن يتمثل حياة شكيب أرسلان وجهاده السياسي يظن أن الرجل قد تفرغ له ولم يكن في حياته غيره ، كما أن من يتمثل سعة ثقافته وكثرة اطلاعاته يظن أنه يمضي حياته قارئاً لم يكن لديه وقت للكتابة ، وهنا نجد المتأمل لمؤلفاته العديدة في الفكر والأدب والتاريخ والترجمة يتساءل : متى تفرغ شكيب لهذه المؤلفات الضخمة ؟ حتى قال عنه الشيخ علي الطنطاوي : «الأمير شكيب أعظم شخصية عربية فقد كان لسان الإسلام ومدرة العرب وأحسب أن مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب في ضعف حجم الأغاني» [١] .

لذلك كانت الإحاطة بكل أفكار الأمير شكيب أرسلان ، ودراسة آرائه في مختلف الميادين التي تطرق إليها مسؤولية تتجاوز طاقة باحث واحد أو كتاب بعينه ، وقد لمس هذا كل من كتب عن شكيب أو بحث في جانب من جوانب شخصيته وفكره وآثاره ، وقد عبر الشيخ أحمد الشرباصي عن ذلك بقوله عن شكيب أرسلان أنه : «شخصية متعبة متعَبة» ! .. إنه رجل متعب لمطالعه وباحثه والكاتب عنه ، فقد طال عمره وكثر عمله ، وظل يكتب أكثر من ستين عاماً ، وكان كالغيث الهاطل المدرار في كتابته ، حتى تصعب ملاحقته ومطالعته .. » [٢]

وقد أحصى الشيخ أحمد الشرباصي لشكيب أرسلان أكثر من أربعين كتاباً ما بين

---

١ - من مقال بقلم (أكرم زعيتر) بجريدة الشرق الأوسط ، بتاريخ ١٩٨٦/٣/٢٨م .

٢ - أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، جـ١ ص١٠-١١ ، دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٨٢-١٩٦٣م .

مطبوع ، ومخطوط ، ومنوي ، أو مقترح ، فضلاً عن مئات المقالات في مجلات : الشورى ، والشباب ، والعلم المصري ، والمشرق ، والزهراء ، كما تفرقت آثاره وكتبه ما بين الشرق والغرب .[١]

ومن الحقائق التي تميز فكر الأمير شكيب أرسلان أنه كان حاضراً بقوة في أحداث عصره ووقائعه وفي ما تبقى من ثقافة ذلك العصر وتراثه ، فلا يكاد يخلو كتاب يؤرخ للإتجاهات الفكرية لتلك المرحلة أو يعرض لقضية من القضايا التي أثيرت في عصره إلا تعرض لإسهام شكيب بفكره فيها ، أو يستوثق واقعة من خلال شكيب ، أو يلقي الضوء على أحدهم بتبيان علاقته بشكيب ، أو يعرض فكر هذا أو ذاك من خلال رسائل شكيب ، ومع ذلك فإن فكر الأمير شكيب أرسلان نفسه لم يأخذ حقه من الدراسة العميقة التي تبرز آرائه الكلامية والفلسفية ورؤيته الإصلاحية في الدين والسياسة والحياة .

وما أقوله لا ينال على الإطلاق من أهمية الدراسات السابقة التي تناولت جوانباً من شخصية الأمير شكيب أرسلان ، وتتمثل في الأعمال الآتية مرتبة بحسب ظهورها :

١ - الأمير شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ، للدكتور محمد سامي الدهان . وهي ترجمة لحياة شكيب أرسلان ، وعرض لآثاره المختلفة ، وتحليل لجوانب في شخصيته ، كانت نواتها محاضرات ألقاها الدكتور الدهان في معهد الدراسات العربية ، ثم بسطها وأوسع القول فيها ، ونشرها في كتاب عام ١٩٥٩م .

٢ - أمير البيان شكيب أرسلان ، تأليف الشيخ أحمد الشرباصي ، وهي رسالة ماجستير تقدم بها الشيخ إلى قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية سنة ١٩٦٣م ، واكتفى فيها بالحديث عن عصر شكيب ، وحياته ، ونثره ، وشعره ، وآرائه في النثر والشعر، وجهوده اللغوية وكتبه وآثاره . ثم عاد الشيخ إلى شكيب في إبريل من نفس السنة وكتب عنه (شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام) وفيه قدم الشيخ مجموعة من أفكار شكيب وآرائه وجوانب من شخصيته وأخلاقه ، وقدم الشيخ

---

١ - المرجع السابق .

لبحثه بأن ما قدمه عن شكيب ليس نهاية المطاف معه (فمثل هذا الرجل جدير بأن يدور حوله أكثر من بحث ، وأكثر من حديث) .

٣ - شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، للدكتور محمد شفيق شيا ، ويحقق هذا البحث وللمرة الأولى معرفة بفكر الأمير شكيب أحسن تنظيماً وأكثر شمولاً ، وهو خطوة أولى - كما يقول كاتبه - نحو بيان حقيقة فكر الأمير السياسي والنظري ، أهم ما يؤخذ على هذا الكتاب هو خلط مؤلفه أحياناً بين آراء الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي وبين آراء مؤلف الكتاب الأمريكي لوثروب ستودارد ، وإن كان هذا لا يقلل من تقديري للكتاب ، ولا من اعترافي باستفادتي منه مع اختلافي عنه في المنهج ، وقد ظهر هذا الكتاب سنة١٩٨٢م .

والحق أن كل من كتب عن الأمير شكيب أرسلان شعر أنه لا يمكنه أن يفي الرجل حقه ، وأن هناك جوانب تحتاج إلى دراسات أخرى ، فهذا الدكتور الدهان يقول عن دراسته لشكيب إن هي «إلا محاولة في دراسة معاصر متشعب النواحي ، يبدو أنه لا يسلس قياده لباحث .. فإذا ندّعنا ما كان لنا أن نقوله فيه فعذرنا أنه واسع الآفاق بعيد الأرجاء .. ولا يستطيع الإلمام به أي كتاب محدود الصفحات» [١]

والشيخ أحمد الشرباصي يقول «إن هناك نواحي كثيرة في شخصية شكيب تستحق الدراسة»[٢] ، والدكتور محمد شفيق شيا يؤكد أن الإحاطة بكامل إسهام شكيب الثقافي والتاريخي هو أمر يتجاوز حدود البحث الواحد ، «وهكذا ظلت ميادين كثيرة الغنى والأهمية والقيمة وجديرة باستقطاب دراسات مستقلة أخرى»[٣]

وقد بدا لنا أننا نستطيع بدراستنا أن نوجه ضوءاً إلى جانب هام في شخصية الأمير شكيب أرسلان ، وهو «المشهور بأمير البيان» ، إذ اشتهر باهتماماته الأدبية ولكنه لم يعرف بنفس القدر كمصلح إسلامي له فكره المستنير في الدعوة إلى النهوض بالأمة

١ - د/سامي الدهان ، الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره ، ص١١ ، دار المعارف بمصر .

٢ - الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص٦ ، مصر ١٩٦٣م .

٣ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، ص١٣ ، بيروت ١٩٨٣م .

والدفاع عن عقيدتها ، ومواجهة خصومها ، والحرص على وحدتها ولعلنا بذلك نسهم في توفير الفهم المطلوب لإنجازه التاريخي والفكري في كامل حقيقته وأهميته .

وقد جعلت الرسالة في ثلاثة أبواب وخاتمة :

١ - الباب الأول : الأمير شكيب أرسلان مفكر إسلامي وهو يحتوي على ثلاثة فصول ، الفصل الأول في حياته وعصره ، وهو عصر طويل حافل ، ممتلئ بالأحداث الجليلة ، وقد اقتصرت على أهم الأحداث المتصلة بحياة شكيب وبينت رأيه فيها ، وتحدثت عن نسبه وأسرته .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن طائفة الأمير وعقيدته ، وهي مسألة شائكة لأن الأمير شكيب ينتسب إلى طائفة الدروز بينما ينتمي في عقيدته إلى مذهب أهل السنة كما يؤكد الباحثون ، وكما أثبتنا من خلال دراستنا لفكره .

وفي الفصل الثالث ، لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً ؟

أثبت أن الأمير شكيب أرسلان أحد رواد النهضة الإسلامية المعاصرة ، وقد تدرجت إلى ذلك باستعراض الصراع الفكري الذي رافق الغزو الاستعماري للبلاد الإسلامية ، وبينت حركة المقاومة للإستعمار الغربي في الفكر الإسلامي ، وعناصر هذا الاتجاه ، والعوامل المؤثرة في آراء الأمير شكيب أرسلان الكلامية والفلسفية .

- وأما الباب الثاني ، وعنوانه «الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان» فقد قسمته إلى فصلين ، وبحثت في الفصل الأول : قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان ، ودفاعه عن الشريعة الإسلامية في مواجهة مطاعن المستشرقين والمتفرنجين ، وموقف الأمير من عقيدة القضاء والقدر .

وبحثت في الفصل الثاني : موقف الأمير شكيب أرسلان من الفرق الإسلامية ، وبدأته ببيان موقفه الكلامي من الدروز ، ثم من المعتزلة والأشاعرة ، والخوارج ، والبابية والبهائية .

- أما الباب الثالث ، وعنوانه «الآراء الفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان» فقد قسمته إلى فصلين ، وبحثت في الفصل الأول : نقد الأمير شكيب أرسلان للفكر المادي

الحديث ، وبدأته بمدخل موجز ، ثم تناولت أولا قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان ونظرية التطور ، وتناولت ثانيا رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية .

وفي الفصل الثاني : بحثت الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان ، وبدأته بتمهيد ، ثم تناولت أولاً تصور الأمير شكيب للدولة الإسلامية ، وتناولت ثانياً الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان .

هذا موضوعي ، وذاك منهجي ، وذلك جهدي ، وأرجو أن أكون قد وفقت بهذا المجهود أن أجلي وللمرة الأولى آراء الأمير شكيب أرسلان الكلامية والفلسفية ، وأن أكون استطعت التعريف بجانب عظيم من فكره الذي بذله في خدمة دينه وأمته ، وهي الحقيقة الكامنة وراء إنتاجه الفكري ، فقد كان يتملكه إحساس ظاهر بأنه مسؤول عن تراث العربية ومطالب بحراسة مواريث الإسلام ، ومنتدب للذب عن قضايا المسلمين إلى جانب ما أوتيه من فصاحة اللسان ، وعمق المعرفة ، وإخلاص العزيمة .

ويسعدني أن أسجل هنا تقديري العميق وشكري الجزيل لأستاذي :

الدكتور / مصطفى حلمي

الذي أشرف على الرسالة ، واختار موضوعها ، وخط لي منهجها وتعهدني بتوجيهاته ورعايته ، وسدد الخطوات على طريقها ، فجزاه الله عز وجل عني وعن خدمته للإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكتابه الذي يهدي للتي هي أقوم ، وفكره ، وتاريخه ، خير الجزاء .